

فصلنامه علمی پژوهشی کاوش نامه

سال هشتم (۱۳۸۶)، شماره ۱۵

الغزل العذري من العصر الجاهلي الى العصر الاموي*

قدیمه احمدیان^۱

دانشجوی کارشناسی ارشد دانشکده الهیات

خیریه عچرش^۲

استادیار دانشکده الهیات دانشگاه شهید چمران اهواز

چکیده:

مردم از دوره جاهلی با غزل آشنا بوده‌اند و در این زمینه اشعار زیبایی از خود بر جای گذاشته‌اند. غزل در دوره جاهلی وسیله بود نه هدف و جنبه مادی داشت اما غزل در دوره اسلامی مستقل شد و مانند دوره قبل وسیله نبود بلکه هدف و غایت بود. دین جدید و قرآن همانگونه که چیزهای بسیاری را تحت تأثیر قرار داد، بر شعر نیز تأثیر گذاشت. شعر، در این دوره، رنگ عفت و پاکی به خود گرفت. و به دو گرایش بادیه نشینی و شهرنشینی تقسیم شد، غزل در گرایش اول غزلی عفیف و پاک بود و بیشتر در میان مردم چادر نشین که زندگی فقیرانه داشتند رایج بود. فقر و تهیدستی و محرومیت دست به دست دادند و روان و زبان مردم راتزکیه گرداند. اما غزل شهرنشینی بیشتر در شهرها بود؛ آنجا که مردم زندگی مرفه و آسوده‌ای داشتند. از معروفترین شاعران غزل سرا «قیس بن الملوح (مجنون) و جمیل بثینه و کثیر عزة و عروة و توبة» را می‌توان نام برد.

واژگان کلیدی: غزل پاک، عفت، دوره جاهلی، جمیل بثینه، بیابان.

تاریخ پذیرش نهایی: ۸۶/۱۲/۲۲

* تاریخ دریافت مقاله: ۸۶/۲/۹

نشانی پست الکترونیکی نویسندگان:

1- Gh-ahmadian2008@yahoo.com

2- Echresh-kh@yahoo.com

الملخص

عرف العرب فن الغزل منذ الجاهلية و برعوا فيه و تركوا لنا قصائد جميلة في هذا المضمار و كان آنذاك وسيلة لا غاية كما كان مادياً و انتقل الغزل من العصر الجاهلي الى العصر الاسلامي و استقل عن قالب القصيدة في هذا العصر و لم يكن وسيلة كما كان في الجاهلية بل غايةً و أثر الدين الجديد و القرآن في هذا النوع من الشعر كما اثر في اشياء كثيرة و صبغه بصيغة العفة فلذلك اصبح للغزل اتجاهان بدوي و اتجاه حضري اما الاول و هو العفيف فكثرت في البدو حيث الخيام و الفقر فقد اجتمع في تلك البيئة الفقر و الحرمان و عفت النفس و اللسان و الغزل الحضري كان في المدن حيث الحياة المرفهة و الخصب و القيان و من اشهر شعراء البادية العشاق:

أ- قيس بن الملوح، يذكر اسمه مع بنت عمه ليلى العامرية، و اشتهر بمجنون ليلى.

ب- جميل، و له شعر في بثينة، و لاجل ذلك سمي بـ (جميل بثينة).

ج- كثير، كان يعشق عزة و يحبها.

د- عروة في عفراء، و له شعر فيها.

ه- توبة له شعر في ليلى الاخيلية، و كلاهما شاعران.

الكلمات الدلالية: الغزل العذري، العفة، العصر الجاهلي، جميل بثينة، البادية، العصر الاموي.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الانسان و علمه البيان. و الصلاة و السلام على رسوله الكريم و آله الطيبين الطاهرين.

و اما بعد فانّ الغزل تعبير عن عاطفة أصيلة في الانسان تقوم على أصالة الحاجة الجنسية فيه. هو من اقدم الفنون الشعرية عند العرب و اكثرها شيوعاً لاتصالها الوثيق بالطبيعة. و كان موجوداً في العصر الجاهلي و اتصل بالعصر الاسلامي و بعد ذلك العصر الاموي حتى وصل الى عصرنا الراهن و سيبقى و يدوم ما دام القلب و الاحساس و العواطف الصادقة حية دائمة. هذا البحث جاء لتعريف الحبّ و الغزل بصورة عامة اولاً و في العصور المختلفة من الجاهلية الى الاسلامية الى الاموية و ثانياً قام بتعريف الغزل العذري و صفاته و خصوصياته و شعراءه و اخيراً اخذ في مقارنة الغزل بين العصر الجاهلي و الاسلامي و الاموي بالتفصيل.

الحب و مذاهبه

لكي نتعرف على ماهية الحب، يجب أن نتعرف على الباعث الذي أثاره، و أشعل كوامنه، أو صرف النظر عنه، و حوّل مرآة القلب عن استقباله، و الباعث على الحب فى رأينا هو الجمال، الذى ينبعث من ذات الشيء. فنميل اليه و نألفه و نرغب فيه بمعايير متفاوتة وفقاً لتفاوت فطرتنا و مدى استجابة النفس لهذا الشيء.

للجمال اتجاهان: اتجاه يستهوي نماذج معينة للأشياء و اتجاه يرجع إلى ما نقرؤه خلال الأشياء. الإتجاه الأول عرفه العرب منذ اقدم العصور. و يمكن أن نفسره (بالجمال الموضوعى) أي الذى ينصب على مجموعة من الخصائص و الصفات. إذا وجدت حكمنا على الشيء بأنه جميل.

و الإتجاه الثاني تحدّث عنه العرب في كتبهم و هو ما يمكن أن نفسره (بالجمال الذاتي). هذا الإتجاه نسي من شخص الى آخر. و من خلال هذه الأقوال نستطيع أن نخرج بحقيقة و هي: أن الباعث على الحب هو الجمال، و أن الجمال يكمن عادة في الطبيعة و المرأة، الطبيعية بما فيها من جمال و قيم، و المرأة بما فيها من اشعاعات و معان، و لعل من أجل الصور التى رسمتها الأقلام لحقيقة المرأة. هذه الأسطورة التى وردت في الأدب الهندي من أن الإله (توشترى) فكر في تصوير المرأة بعد أن أنفق مادة الخلق في تكوين العالم، و صياغة الرجل، فجهد جهده في التماس الحيلة إلى ذلك. حتى اهتدى إلى أن يجعلها شيئاً من كل شيء، فصاغها من استدارة البدر، و نضارة الزهر، و لطافة النسيم و رشاقة الغصن، و دموع الغمام و هديل الحمام، و لحظات الشادن، و قسوة الأسد، و بحجة الطاووس، و التواء الأفعى، ثم قدمها إلى الرجل، فكانت سحراً لناظره، و فتنة لخاطره، و حيرة لنفسه، و مادة لدرسه.

(راجع: عفيفي، صادق، ١٩٧٢، ص ٩٥-١٠٠)

و مع الصحراء تقف المرأة فى حياة الشاعر العربى ملهمةً أخرى، أو ربةً معبودة يُقدّم في هياكلها المقدّسة أغلى قرابينه، و يرتّل في حبها أروع آياته، و يوقد في رحابها الشموع، و يحرق عند أقدامها البخور. و كل من يستعرض شعرنا العربى يلاحظ أن المرأة احتلت منه مكاناً مرموقاً، و أهما عاشت فيه نغماً خالداً تعرفه قيّاث الشعراء، و تُوقّعه أوتارهم، و أغنية حلوة تتردد في هواتم و فوق شفاههم، و حلماً ساحراً يداعب اجفانهم، و يسامر لياليهم، و يملؤها

عليهم أحلاماً سعيدة، فمن حبها استلهموا أروع مقدّماتهم، وفي حبها نظموا أبدع روائعهم، و على حبها عاشوا أجمل أيامهم و أحلى لياليهم، و إلى حبها أداروا وجة أمانيهم، ووجهوا صدور آمالهم، ووراء حبها سكبوا دموعهم غزيرة، و أذابوا قلوبهم حيناً و اشواقاً و حشرات. و يوشك الأدب العربي أن يكون أغنى الآداب العالمية شعراً حبّ، و لا يكاد يعدل الغزل العربيّ أيّ غزل آخر كثرة شعراء، و تنوع تجارب، و تعدّد مذاهب. (خليف يوسف، ١١١٩، ص: ٧)

و لا شك في أن العصر الجاهلي كان نقطة البداية لكثير من اتجاهات الغزل العربي فقد ظهرت المقدمات الطللية و الغزلية، و ظهر الغزل الحسّي بشتى درجاته عند امرئ القيس و الأعشى و أضرابهما، و ظهر الغزل المعنوي بما ينطوي عليه من إرهاصات عُذرية عند المتيمين. و بعد ذلك يأخذ الدين الجديد يغمر العرب و تمتد اشعته القوية في كل الارض.

يتدفّع تياران جاهلي و إسلامي يتجاذبان كلّ الشعرا فيما بينهم «و تبدأ عملية» التطور و التجديد «في الشعر الأموي تأخذ طريقها في الحياة الأدبية. و يمضي الشعراء - في ظل حياتهم الجديدة - يُعمّقون مجرى النهر الذي راح الشعر العربي يتدفّق فيه قوياً صاحباً، و تُبعثُ اتجاهات الغزل القديمة للحياة خلقاً جديداً فتظهر مدرسة الغزل الحجازية في مدن الحجاز الكبرى: مكة و مدينة و الطائف، و يلمعُ في أفقها الشرقيّ الزاخر بالأضواء: عمر و العرجي و الأحوص، و أمثالهم ممن تخصصوا للغزل و راحوا يوسعون مجرى النهر، فأندفعت تياراته الدافقة الدافقة تحكي قصة الحب التي تدور أحداثها على المسرح الجديد ناعمةً مرحة مبتهجة متفائلة. و تظهر في بوادي نجد و الحجاز مدرسة العذرين، و يلمع في أفقها الغربي الشاحب الذي تكاثفت فيه الغيوم: جميل و الجنون و ابن ذريح، و نظراؤهم من شباب البادية اليائس المحروم الذين راحوا يُطهّرون مجرى النهر القدم من الأعشاب و السدود ليتدفّع ماؤه العذب صافياً رقراقاً يحكي مأساة الحب التي تدور أحداثها الحزينة فوق الرمال يأساً و حرماناً و دموعاً و حينياً إلى ماضٍ بعيد ذهبت ذكرياته السعيدة أدراج الرياح. (ذوالرمة شاعر نفسه و الصحراء: ص: ٨٠)

و فظلت للمقدمات الطللية و الغزلية قداستها التقليدية، و ظلت في موضعها القديم حناً مميّزاً للقصيد العربية، و بخاصة عند الشعراء الكبار: جرير و الفرزدق و الأخطل الذين شغلوا

بجوض معركة النقائص المحتدمة فوق أرض العراق النائرة التي راحت القبائل تعيد عصبيتها من جديد إلى الحياة.

الغزل:

اما بالنسبة الى الغزل فانه نشأ في الجاهلية نشأة طبيعية ولأن النساء كانت سافرات لا يتبرقعن ولا يتحجبن عن انظار الجنس الآخر، إلا بعض التلثم. و الميل بين الجنسين أحدهما الى الآخر ميل طبيعي غايته و كماله الزواج. و كان تعدد الزوجات و إباحة ما في ملك الرجل من الإماء شائعاً في الجاهلية. والميل يظهر بالحب والولع بالجمال، و الحب والولع يقودان الى التغني بمظاهر ذلك الجمال، و هذا التغني هو الغزل، و يُدعى النسيب و التشبيب. قيل بل التشبيب ذكر أيام الشباب، و اللهو و الغزل و ذلك يكون في إبتداء قصائد الشعر. «وجاء تلخيص ميزات الجمال الجاهلي الذي تغنى به الشعراء، في كلام يُنسب الى امرأة من كندة، قيل أرسلها الحرث بن عمرو ملك كندة لتختبر له جمال ابنة عوف ابن ملحم الشيباني و كمالها و قوة عقلها. فلما رجعت إليه قالت: «رأيت جبهة كالمرأة المصقولة، يزيناها شعر حالك كأذئاب الخيل، إن أرسلته خلته السلاس، و إن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل، و حاجبين كأنما خطأ بقلم أو سوداً بفحم، تقوساً على مثل عين ظبية عبهرة، بينهما أنف كحدّ السيف، حفّت به وجنتان كالأرجون، في بياض كالجمان، شقّ فيه فم كالخاتم لذيد المبتسم، فيه ثنايا غرّ ذات أشر، تقلب فيه لسان ذو فصاحة و بيان، بعقل وافر، و جواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمران في رقبة بيضاء كالفضّة رُكبت في صدر كصدر تمثال دمية، و عضدان مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمسّ و لا عرق يُجسّ، رُكبت فيهما كفّان دقيق قصبهما، لين عصبهما، تُعقد إن شئت منهما الأنامل... هذا كان المثال الأعلى في الجمال عند أبناء الجاهلية و هذا ما وصفه شعراؤهم. (الفاخوري، حنا، ١٩٩٥، ص ١٤٦) فهو جمال الجسم والظاهر فقط ولا النفس والباطن.

مكان الغزل من الشعر الجاهلي

١ - كثرة هذا الغزل

يشغل الغزل، من الميراث الشعري الذي خلفه لنا العصر الجاهلي، مكاناً واسعاً، حتى ليكاد

أن يكون الجزء الأكبر من ثروتنا الأدبية في هذا العصر. «و مطالعتنا دواوين الجاهليين المختلفة تضعنا أمام هذه الحقيقة الواضحة، و هي ان كثرة كثيرة من الشعر الجاهلي الذي وصل الينا تكاد تكون قاصرة على الغزل او متصلة به بسبب، و إن الأغراض الاخرى جميعاً من الفخر و المدح و الهجاء و الرثاء لا تعدو أن تكون قسيماً لشعر الغزل... ان الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين، نقش الجاهليون على صفحاتها الاولى عواطفهم التي ابتعثها فيهم الحب، و ما يؤدي اليه هذا الحب من وصل او هجر، و من سعادة او شقاء، و من لذة او غصبة، و صوروا هذه العواطف و أفنوا في تصويرها ملكاتهم و مواهبهم... أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها كل اغراضهم الاخرى، و نثروا في اطرافها كل الفنون و الأغراض الثانية، كائنة ما كانت هذه الفنون و الأغراض. (شكري فيصل: ١٩٨٦: ص: ٢٣)

٢- أصلته

و ليس هذا فحسب، بل إن الأغراض الأخرى التي عرض لها الشعراء الجاهليون لم تكن، في كثير من الأحيان، مقصوداً إليها قصداً و لا معتمدة تعمداً... كانت روح الحب و عواطف الهوى هي التي تبتعثها و هي التي تكمن وراءها... و بتعبير آخر، كانت هذه الأغراض تتصل بالغزل بهذا السبب أو بذاك، بالسبب الواضح أو بالسبب الغامض... و لكنها «كانت في احيان كثيرة قريبة منه» فالفخر الذي أنشده عنتر في معلقته لم يكن بعيداً عن روح الغزل، بل كان منه منبعه و مصدره، كان الشاعر يريد لصاحبه أن تطمئن اليه، فلم يكفه أن وقف على أطلالها و لا أن وصف طرفها الغضيب و رائحتها الطيبة، و انما عرّج فوصف مواقفه في الحروب و مكانه من الغزوات و شجاعته في التوال، و كيف كان يلاقي البطل المدجج الذي كره الكماة نزاله، و كيف كان يجود له كفه بالطعنة العاجلة، ثم كيف كان يشك بالرمح الأصم ثيابه حتى يتركه للسباع يُشْنَهُ و يتناولنه من أطرافه و رأسه... و كذلك كان الشأن حين تحدث عن القوم بالغارات يدعون «عنتر» فاذا هو يتقدم يستنقذ قبيلته و يرد عنها خصومها. (نفسه، ص: ٢٤)

٣- دلالة النفسية: ذاتية الشاعر الجاهلي

و مهما يكن من شيء، فقد احتل شعر الغزل هذا الحيز الواسع من الثروة الشعرية و تربّع

على قممها، فلم يحفظ لنا الشعر الجاهلى هذه الصور من تاريخ الجماعة و من غزواتها و حروبها و من تنافر قبائلها و ائتلافها فحسب، و لكنه حفظ لنا فى فنونه الغزلية هذه الصور من حقيق أفئدتها و ذوبان قلوبها.. و لم يمثل لنا هذه الجماعة فى حياتها الخارجية فحسب بل مثل لنا حياتها الداخلية.. أطلعنا على نبضات القلوب و آهات النفوس و مسارح الذكريات.. و صورنا هؤلاء الأفراد كما صورنا الجماعة ايضاً عبر عواطفها.. فكان لنا بذلك ثروة كبيرة فى تعرفنا الى هذا القبيل من الناس كيف كانوا يعيشون فى نزواتهم العاطفية.

وهذه الملاحظة عن غزارة شعر الغزل ووفرة مقاديره فى التراث الأدبي الجاهلي قد تلفتنا الى « ذاتية » الشعر العربي و تطلعنا على «فرديته» و تقيم برهاناً جديداً على هذه الصفة.. إن كثيراً من النقاد يلمحون فى الشعر الجاهلي صفته الاجتماعية، و يلحون على القول إنه كان صورة اجتماعية لحياة الناس، و إن الشاعر كان سجل حياة القبيلة و مجمع مآثرها، و كان لسانها الذي يعبر عنها، و إن شعره كان ملتقى عواطفها و محامدها و سجل أيامها و وقائعها.. و الواقع إننا يجب أن نغفل - فى غمار هذه الصفة الاجتماعية للشعر العربي - انه كان قبل ذلك او الى جانب ذلك شعراً فردياً، و إن هذه الصفة الذاتية فيه تكاد تغلب ما سواها، و إن الشاعر لم يكن لسان القبيلة فحسب و لكنه كان لساناً معبراً عن وجوده النفسي و عواطفه الخاصة إنه لم يكن بوق القبيلة فقط و لكنه كان قيثاراً نفسه و صدى لقبيلته بعد ذلك. (نفسه، ص ٢٣ - ٢٧) لانه ديوان الأحاسيس و العواطف له و لقبيلته و كان العرب - كما تعلمون - يفتخرون بشاعرهم و يتفاخرون به.

الغزل فى العصر الأموي

بما أن العصر الاموي عصر الغزل ولأن الغزل و النسيب عادا فى العصر الأموي إلى الازدهار بعد أن كانا قد أهملتا قليلاً فى صدر الاسلام الأول. «لقد انحدر الغزل الأموي من الغزل الجاهلي. غير أن هذا الغزل كان فى الجاهلية غرضاً من أغراض القصيدة يأتي فى أبياتٍ ثَقَلٍ أو تَكَثَّرَ و تتوالى أو تتفرَّق؛ فلما انحدر إلى العصر الأموي أُتيح له شعراء وقفوا جهدهم عليه كعمر بن ربيعة الذي جعل منه فناً قائماً بنفسه: كان عمر يقصُرُ القصيدة على الغزل فلا يكاد يقول فيها ألا غزلاً، ثم انه لم يقل إلّا فى الغزل. و النسيب أيضاً فنّ جاهلي أصيل، غير

إنه خضع في العصر الأموي لتطور بارز جداً: لقد تطور جانب منه فنشأ ما نسميه بالغزل العذري. (فروخ، عمر، ١٩٩٧: ص: ٣٦٧)

وطه حسين يقول: غزل أيام بني أمية ينقسم الى ثلاثة أقسام مختلفة: الأول غزل العذرين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا الحب الأفلاطوني العفيف، «كحميل وعروة وقيس بن ذريح و المجنون» والثاني غزل الإباحيين الذين أسميهم «المحققين» وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً، وزعيم هؤلاء عمر بن أبي ربيعة. والثالث الغزل العادي الذي ليس هوفى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المؤلف أيام الجاهليين، أريد به الغزل الذي لا يقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق، وإنما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر؛ إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها، أريد به هذا الغزل الذي كان الجاهليون يبتدئون به قصائدهم والذي ظل الإسلاميون يبتدئون به قصائدهم إلى اليوم، وهو الغزل الذي تجده في شعر جرير والفرزدق والراعي وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر. (حسين، طه، ١١١٩، ص ١٨٧). ولا شك أن تطور العصر والسياسة يؤثر على المجتمع وآدابه كما يؤثر على ثقافته و ثقافته ونرى هذه القضية في المراحل المختلفة من التاريخ. والشعر لا يستثنى من هذا القانون بل أنه في قمة التأثير والتأثر.

خصائص الشعر الغنائي في المدينة في العصر الاموي

كانت صورة الغزل في المدينة لهذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها ولا عوج، بل يحكي فيها الشاعر كل ما يقع مع صواحيبه من عبث و مجون في استهتار واضح، و من هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة في هذا العصر غزل إباحي لم نكن مخطئين. و ليس معنى ذلك ان المدينة انتفى منها الغزل العفيف، وإنما معناه أن هذا هو الكثير الغالب، و قد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تسام و فيه طهر، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا و عبروا في غزلهم عن مثالية من العفاف و النبل دون سقوط في حكاية رغبات جنسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه المدينة، عبدالله بن عبدالله ابن عتبة. (شوقي ضيف: الشعر والغناء، ١٩٦٧، ص: ١٠٩)

و أيضاً ينبغي أن نعرف إن غزل الإباحيين أنفسهم كان يختلف باختلاف المرأة التي

يتغزلون فيها، فالمرأة العربية الكريمة من قريش او من الأنصار لا يتغزلون بها في حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجواري المغنيات اللاتي كن يُبعن في الاسواق. و ليس من شك في ان هؤلاء القيان كان هن اثرهن في شيوع الغزل الاباحي بالمدينة و انتشاره، و كذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تتشاهمان من حيث الحضارة و الترف و من حيث وجود دور اللهو و هؤلاء القيان.

لعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف في البادية عند جميل وكثير و أصحابهما، فقد كانت البيئة غير متحضرة، و لم يكن هناك هؤلاء القيان و لا هؤلاء الشبان من اهل المدينة الذين خلعوا كل حشمة ووقار. كان غزل المدينة اباحياً في جملته، و لكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله في هذه الوجهة، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عبّاد المدينة و فقهاؤها. (نفسه، ص: ١٠٩)

في بادية نجد و الحجاز كانت الصورة المقابلة للغزل الحجازي سائدة، و هو انعكاس طبيعي للحياة البدوية، التي عاشها قبائل البادية في ظل تعاليم الإسلام، التي خلصتهم من روح الجاهلية القديمة، و هذبت من نفوسهم، و دفعت إليها بالفضيلة و العفة و مكارم الأخلاق، و الرقة و البر بالمرأة. و قد عزلتهم بيئتهم عن التأثير بما تأثر به مجتمع الحجاز من التيارات الحضارية، فظل مجتمعهم محتفظاً بطوابعه البدوية، و بحياته الاجتماعية التقليدية فضلاً عن حياة الشطف و الجذب، التي كانت تسيطر على مقدراتهم الاقتصادية ؛ و لهذا كان الحرمان هو السمة الغالبة على مجتمعهم في ظل إعلاء الغرائز، و لهذا ساد الحب العذري الذي يفترق عن الحب الحسي الذي عرفه مجتمع الحجاز. و صورة هذا الحب، نتيجة لكل هذا، مأساة حزينة بدايتها أمل، و نهايتها يأس. و بين البداية و النهاية أحداث تتلاحق، يسيطر عليها الحرمان، و تُعشّيها الدموع و الأحزان، و لكن روحاً من الوفاء و الإخلاص و التوحيد، و الطهر و العفة، تتسامى به عن رغبات الحس و أهوائه، الى عالم مثالي روحي خالص و قد اشتهر بهذا الحب، و صورّه في شعره شعراء عذريون كثر. و شعر العذريين بهذه الصورة جديد في الغزل العربي، خلافاً لمن يروونه وريثاً لشعر المتيمين الجاهليين. فلاشك أن الإسلام قد أضفى عليه من تعاليمه و مثله سمات و خصائص جديدة، و طبعه بطوابع تختلف عن الطوابع الجاهلية. و لعل أبرز ألوان التجديد فيه ظاهرة التخصص التي رأيناها في شعر الغزل الحسي بالحجاز. فقد أفرد الشعراء

العذريون قصائد برمتها لهذا الحب الرومانسي الصافي، الذي أصبح معيناً يستمد منه شعراء الصوفية في التعبير عن مواجدهم الروحية، وحبهم الإلهي فيما بعد. (النعمان، عبد العزيز، ١٩٩١، ص ٦٧ - ٦٨)

الغزل العذري

ليس في عصور الشعر العربي عصر لم يعرف الغزل. إلا أنه كغزل من أغراض الشعر فقد ازدهر بوجه خاص في العصر الأموي. وللغزل مدرستان: العذرية والحضرية. شاعت المدرسة الأولى في البادية و كان زعيمها جميل بن معمر العذري؛ وانتشرت الثانية في المدينة و حواضر الحجاز، و كان زعيمها عمر بن أبي ربيعة.

أما الذي نحن بصدده فهو التيار العذري الذي غزا البادية و امتد تأثيره حتى عصرنا، متلوّناً بأناشيد الحرمان وولوع الأشواق و شكاوى الفراق و الحب الدفين. و الغزل العذري هو الغزل الحزين و أغنية الوعد تنقضى السنون و لا تتحقق. و كان مثل هؤلاء الشعراء شعراء كثيرون يتقلّبون في البوادي و هم في أساليبهم الغزلية و في رواياتهم الغرامية. و قد نسج الرواة والأدباء حولهم أفاصيص تشابه و تتقارب حتى لتظن الواحد منهم الآخر، و حتى لتحسب كلام الواحد كلام الآخر. و إذا بدا على هذا الغزل بعض الإشارات المادية أحياناً فما ذلك إلا أمان يرسلها المتيم متأثراً بجرمانه، أماني شاعر عاشق يعرف مسبقاً أنّها لن تتحقق. (عيد، يوسف، ١٩٩٢، ص: ٣ - ٤)

و العفة في القول و العمل غير مرهونة بعصر من العصور و إن انغماس أكثر الناس، و فيهم الشعراء، في القرن الثاني بالجون و مفاتن الحضارة الجديدة لا يعني انتفاء العفة و اختفاءها نهائياً، إذ لا بد من أن يوجد في كل مجتمع الخيرون و الأشرار، المجان و الزهاد، و أهل الطهر و العفاف. فإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً نلاحظ أنه في الوقت الذي كان يشيع فيه الغزل العذري و قصص الحب الطاهر في بوادي الحجاز و عند فقهاء مكة و المدينة، كان عمر بن إبي ربيعة و أضرابه من الشعراء يخرجون على الناس بغزلهم الفاحش الصريح مثلما كان يفعل امرؤ القيس و من لف لفه من قبل. (حسين بكار، يوسف، ص: ٢٤٩ - ٢٥٠)

الغزل العفيف غزل الروح المنصهرة، و هولذلك تجربة الوجدان يجري في داخل النفس

أكثر مما يظهر في خارجها. ولهذا السبب تكاد تراه واحداً عند جميع شعرائه، يلتقون فيه و في ما يتناهم من جرأته، حتى لتكاد تحسبهم واحداً علي تعددهم، و حتى لتكاد تحسب أقوالهم قولاً واحداً لصفاء نفوسهم و انحصارها في قيد التجربة الواحدة. أضعف الي ذلك وأنّ الحبّ العذريّ وحدة لا تنجزاً، فهو يمتدّ كاملاً الي شخص كامل، لا يعرف غيره، و لا يستهويه سواه، فينصبّ فيه انصباباً. و هذا الشخص يتحوّل الي فكرة شديدة الفعالية، أو الي صورة جذّابة، تستبدّ بكيان الشاعر و جميع قواه فينطلق وراءها متصابياً، و يذوب جسمه ألماً وضعفاً في التطلّع إليها، وإذا هو إغماءة تلو إغماءة و ذهول بعد ذهول. ويزيد في ألم الشاعر ما يقف أمام حبه من عقبات، إذ ينشغل به الناس و تجري به ألسنتهم و يلومون و يعذلون، و يرمون الشاعر بالجنون؛ و قد يهدّدون و يتوعّدون، و الشاعر في عالم غير عالمهم، يعيش في صورة المحبوب، و تعيش فيه تلك الصورة. و تدور الأيام بالمحبوب، و يصير في حوزة آخر، فيشتدّ الألم بالشاعر و يصبح في الوجود أشبه بصدى في الآفاق، ثم يتلاشى الجسد، و إذا الشاعر روح في روح حبيبه و إذا حبيبه شعلة في خلوده. (الفاخوري، حنا، ١٩٩٥: ص: ٤٤١ - ٤٤٣)

لم يكن الشعر العذري الذي تعود بداياته إلى أواخر العصر الجاهلي تعبيراً عن تجربة اختص بها شاعر فرد، و إنما كان ظاهرة عامّة عرفتها فترة من الزمن ذات خصائص اقتصادية، دينية، اجتماعية و سياسية. و قد عُرفت هذه الظاهرة أكثر ما عرفت لدى قبيلة عربية تدعى «عذرة» فنسب هذا الشعر إليها و سُمّي باسمها. و قد نجد، في الواقع التاريخي لهذه القبيلة، ما يتيح فهم هذه الظاهرة. المعروف أن بني عذرة كانوا يقطنون وادي القرى و هو كما يقول ياقوت: «وادي بين الشام و المدينة، فيه قرى كثيرة، لأنّ الوادي من أوّله لآخره قرى منظومة و مياهها جارية... منازل لقضاة ثم جهينة و عذرة و بلى. كانت قديماً منازل ثمود و عاد... استخرجوا كضائهما (قنواهما) و اساحوا عيوها و غرسوا نخلها». (زراقط، عبدالمجيد، ١٩٨٩، ص: ٧)

وهذا يعني أن بيئة العذريين بيئة متحضرة منذ زمن بعيد، وهي بيئة زراعية يتوافر الماء فيها؛ وهذا هو الأمر الذي يوفّر لساكنيها فرص الإتصاف بالجمال الناتج عن الحياة المستقرّة اللينة الظليلة - التي تحيط بهم - و الاتصاف، أيضاً بسلوك اجتماعي راق نسبياً.

خصایص الغزل العذري

العفة

إن الغزل العذري هو المظهر الفني للعواطف المتعففة والمتهبة في آن واحد وقد وجدت أن هذا التعويض الفني هو خير ما تطفىء به لهبها وتتسامى به في غرائزها، من هنا نستطيع القول إن العفة أولى صفات الحب العذري و أولى علاماته... بقول جميل بثينة:

و إني لأرضى من بثينة بالذي

لو ابصره الواشي لقرت بلابله

بلا، و بأن لأستطيع وبالمنى

و بالأمل المرجو قد حاب آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي

أواخيره لا نلتقي وأوائله

(عابدين نزار، ١٩٩٩، ص ٦١)

وهذا العفاف هو الفارق الأكبر بين الغزل العذري، و الغزل الذي يمكن تسميته الغزل

العمرى، نسبة إلى عمر بن إبي

ربيعه، و بين العذري و الجاهلي، و بين العذري و التقليدي... و مهما يكن أمر هذا الأسلوب العفيف و مقارنته مع الجاهليين و العمرين و التقليديين فإن من المؤيد أن العذريين كانوا أصحابه، و هم الذين ابتدعوه، فلا نكاد نجد عندهم إلا القليل من وصف أحبهم... لناخذ مثلاً جميل بثينة، و هو أشهر العشاق العذريين... فلا نجد يصف بثينة، و لا يعرض علينا صوراً من جمالها... و كل ما قاله لها أو قاله عنها إنما عذبة الريق بقوله:

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني

أظلل إذا لم أشق ريقك صادي

(عابدين نزار، ١٩٩٩، ص ٦٢)

و إذا كان الشاعر الجاهلي حريصاً على الحديث عن مفاتن صاحبتة و جمالها حديثاً مستفيضاً فإن العذريين اكتفوا ببعض التشبيهات البعيدة، و بما أننا نتحدث عن جميل، فإن كثيراً من النقاد يشكون في صحة بعض القصائد أو الأبيات التي نسبت إليه، و فيها وصف

لمحاسنها الجسدية، مع أن معظم هذا الوصف لا يخرج عن بعض التشبيهات المألوفة في الشعر العربي، كتشبيه العنق بعنق الريم، والعين بعين المها وغير ذلك... فقد اكتفى العذريون وجميل إمامهم بالتشبيهات الكلية:

هي البدر حسناً والنساء كواكبٌ
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضّلت حسناً على الناسٍ مثلما
على ألف شهر فضّلت ليلة القدر
يقولون مسحورٌ يجنُّ بسحرها
وأقسم ما بي من جنونٍ ولا سحرٍ
ذكرتُ مقامي ليلة البان قابضاً
على كفِّ حوراء المدامع البدرِ
فكدت و لم أملك إليها صبايةً
أهيمُ و فاض الدمعُ مني على النحرِ
(نفيه، ص ٦٢)

الديمومة

ولهذا الحب العذري و شعره صفات أخرى يختلف فيها عن غزل الجاهليين و العمريين و التقليديين، و من هذه الصفات: ديمومة الحب و استمراره، فهو ليس عاطفة متأججة مؤقتة... سرعان ما تحمد و تبرد و تزول... يقول كثير عزة وهو يتغنى بعزة و يتغزل مجبها:

و إني وإن صدّدت لمثني و صادقٌ
عليها، بما كانت علينا أدلتِ
فما أنا بالداعي لعزة بالردى
ولا شامتاً إن نعلُ عزة زلتِ

فلا يحسب الواشون أن صبابتي

بعزة كانت غمرةً فتجلت

(كثير عزة: ص ١٥٦)

و التعبير عن هذه الديمومة في الحب يأخذ أشكالاً شتى... فقد يكون في أخبار الشاعر نفسها و هذا شيء مشترك بين العذرين جميعاً. أما شعرياً فقد تنوعت أساليب التعبير عن هذه الديمومة، نقرأ أبياتاً لداود بن سلم:

و ما ذرّ قرن الشمس إلا ذكرتها

و أذكرها في وقت كل غروب

و أذكرها ما بين ذاك و هذه

و بالليل أحلامي، وعند هبوبي

وقد شفني شوقي وابعدي الهوى

واعيا الذي بي طبّ كلّ طيب

(الآغاني، الاصفهاني، ابوالفرج، ١٩٨٦، ج ٦: ص ٢٦)

وقد تدخل المبالغة على تعبير الشاعر عن هذه الديمومة، ومع ذلك فإن المبالغة هنا تزيد في صدق التعبير عن حرقة الجوى، و عن استمرار هذا الحب، في قلب المحب الذي لا يرى غير محبوبته، و تزيد ايضاً في جمال الشعر... يقول قيس بن ذريح، و هو قيس لبنى:

تعلق روعي روحها قبل خلقنا

و من بعد ما كنا نطاقا وفي المهدي

فعاش كما عشنا فأصبح نامياً

و ليس وان مُتتنا بمنصرم العهد

ولكنه باق على كل حالة

وسائرنا في ظلمة القبر و اللحد

(ديوان الشاعر، ص: ٧٠)

و الحب العذري يعد من النوع الذي يعيش فيه العقل في إسار القلب، إنه حب لا يخالطه برد التعقل، و لا تظلمه سحب الفكر الهادي، و إنما يمضي بصاحبه في كل حين حزين حشن صعب،

و تقذف به في معمة العشق، و في أتون نيران الحب المشبوبة... و نراه هو نفسه الذي يوقد

النار، و يحترق بها، يقول مجنون لبنى قيس بن ذريح:

صحا كل ذي لب و كل متيم

و قلبي بلبنى ما حيت مرؤغ

فيا من لقلب ما يفيق من الهوى

و يا من لعين بالصباة تدمع

(عابدين نزار، ١٩٩٩، ص٦٤)

اليأس

في تتبعنا للشعراء العذريين لا نجد عندهم حديثاً عن بهجة اللقاء، و لا عن فرحة الوصال، و

لا عن تحقيق الحب، كما نجد عند شعراء الجاهلية كامرئ القيس و الأعشى، و كما سنجد عن

العمريين فيما بعد... فإذا حدث اللقاء فإنه يكون لقاء عابراً سريعاً لا يروي غلة، و لا يطفىء

لهيباً، بل اكثر ما يكون مناسبة لتبادل النجوى و الشكوى، و زاداً لحزن أكبر قادم، و يأس و

تشاؤم يشيعان في الأبيات، يقول مجنون ليلي:

أقول لأصحابي: هي الشمس، ضوءها

قريب و لكن في تناولها بعدد

لقد عارضتنا الريح منها بنفحة

على كبدي من طيب أرواحها ببرد

فما زلت مغشياً عليّ و قد مضت

أناة و ما عندي جواب و لا رد

(ديوان الشاعر ص: ٥٧)

الصفاء و الإشراق

و عند ما نقرأ شعر الحب العذري لا بد أن نلمس طابعاً مميزاً متأثراً من العوامل السابقة

كلها و نتيجة لها... ذلك هو طابع الصفاء و الإشراق الذي يطبع هذا اللون من الشعر... و

هذا الصفاء و الإشراق في التعبير لا يتأتى للشعراء الإباحيين بان يكون موضوعهم الذي يجولون فيه متمكناً منهم أصيلاً فيهم... إن الفكرة الفجة و الشعور السطحي الطارىء كفيل بان يكشف عن نفسه في صورة التعبير، إذ تأتي صورة التعبير عندئذ فجة سطحية... أما حين تكون المشاعر متأصلة متجذرة متمكنة تنبع من الأعماق، و حين تكون المعاني متمثلة عميقة الجذور عاشها الشاعر و امتزج بها فإن الأساليب التي تكنسها هذه المعاني، لا يمكن أن تكون إلا هذه الأساليب الصافية المصقولة، و لا يمكن إلا أن تكون متطابقة في عمقها و أصلتها مع الأشياء التي تعرضها أو تعبر عنها... (عابدين، نزار، ١٩٩٩، ص ٦١ - ٦٤)

ولادة الغزل العذري

قد يكون من العبث ان نحدد ولادة هذا الفن الشعري... ذلك إنه ظاهرة من الظواهر الفنية التي ترتبط أشد ارتباطاً بالظواهر الاجتماعية. و مثل هذه الظواهر تمتاز بأنها ليست منفصلة عما قبلها و لا منفصلة عما بعدها... فليس لها هذا التوقيت، و ليس في صورتها المكتملة التي نراها عليها ما يتيح لنا ان نقول انها نشأت في هذا العصر او استوت في هذه الفترة... انها تشبه النبتة، و للنبتة في حياتها ادوار متداخلة... انا نراها ناضجة مستوية على سوقها، و لكنها كانت قبل هذه النبتة التي لاتكاد تظهر، او هذه البذرة التي لاتكاد تبدو، و فيما بين ذلك كانت هذه الساق الضئيلة النحيلة التي تتشقق عنها الارض.

فالظواهر الاجتماعية إذن بوجه عام متداخلة متصلة يعسر تحديدها، و الظواهر الفنية بوجه خاص أشد عسراً على التحديد... ذلك لأن ولادة إتجاه في معناه ان هذا الإتجاه كان من قبل حدساً، ثم آل بعد ذلك الى إن يكون إرهاباً، ثم انقلب الإرهاب الى شيء من الغمغمة فيه و الإشارة اليه، ثم كان بعد ذلك هذا الخوض فيه و الحديث عنه. غير ان ذلك لا يمنعنا من ان نلاحظ ان نشأة هذا الغزل العذري و نموه وجدت في مثل ظروفها و اجوائها و بيئاتها التي كان يجب ان توجد فيها... فلم يكن من الممكن ان يظهر هذا الغزل بقديسته و طهارته قبل عصر بني امية. لم يكن من الممكن ان يظهر في عصر الخلفاء الراشدين بالرغم من ان تمثل التقى و الصلاح كان في عصر الراشدين أشد وضوحاً منه في عصر الامويين، و بالرغم من ان الانعتاق من بعض الحدود و التحلل من بعض النواهي و التحرر من بعض التشدد وجد مجالاً في العصر

الأموي بأوسع مما كان في عصر الراشدين و الأمر مع ذلك يبدو بسيطاً... فهذا الغزل العذري يجب ان يكون نتيجة من تربية جيل جديد تربية صارمة، هذا من جهة... و يجب ان يكون نتيجة من نوع من الحياة الإجتماعية تعرف الاستقرار و يساعد عليه من جهة أخرى... و كلا هذين الأمرين لم يتوفراً معاً إلا في عصر بني امية.

صحيح ان الرسول ربّي جيلاً من الصحابة و لكن هذا الجيل كان مشغولاً عن نفسه بواجبه، و عن صوت قلبه بقرآنه، و عن مجاهدة الحبين بمجاهدة المشركين، و عن مكابدة الاشواق بمكابدة الاشواك و العقبات في طريق الفتوح، و عن الاستقرار في الأرض بالضرب في الأرض، و عن الاخلاص الى النفس بالهجرة الى الأمصار الجديدة... أما في العصر الاموي فقد آن لهذه النبتة، لهذا الغزل العذري، ان تفتح و ان تدهر، و ان تأتي بالثمرات الطيبة في تاريخ الادب العربي. فلذلك لا نستغرب ولادة هذا الغزل في العصر الاموي، و لا نقول في انفسنا ما بال هذا اللون من الفن لم تنفس به الجزيرة في عصر الخلفاء... ففي العصر الاموي كانت اكتملت نشأة هذا الجيل الذي مازجت التربية الاسلامية اعماقه، و خالطت دماؤه، و ظلّت طريقه... و في هذا العصر ايضاً كانت همدت ريح الفتوح و انقلبت هذه الفتوح من عمل جماعي يتدفق من كل ارض الجزيرة و يتجمع في هذه التيارات - كاليابيع الصغيرة التي تتفجر من هنا و هناك لتلتئم بعد ذلك في الجدول الكبير - الى عمل حكومي تنظمه الدولة و تشرف عليه و تأخذ نفسها باعداده و الاختيار له، و تركز له وقته و تدعوا اليه، و تلزم الناس الحرب مرة و الاستقرار مرة... ففي هذا العصر اذن آن لنا ان نستمع الى انغام هذا الغزل و الى دقات اوتاره الاولى... اما قبل ذلك فقد كان المجتمع الاسلامي يخضع لتلك الظروف القاسية التي لا تتيح له ان يصرف قواه العاطفية جميعاً في غير حركة التوسع التي كانت ابتلاءً لهذا المجتمع الناشيء و اختباراً لقواه. هذا شيء... و الشيء الآخر الذي نستطيع ان نضيفه ان الغزل و الشعر بوجه عام، كان تمثيل للعاطفة و تعبير عنها - و الاسلام كان فكرة و تستدعي تقبلاً لها و انقياداً اليها... و في الفترات الاولى التي فجأ فيها الاسلام الحياة العربية كانت هذه الموجة الفكرية هي التي تملأ حياهم و يتحدث بها كل اهتمامهم، و تصرف نحوها كل جهودهم و تنبه قواهم في سبيلها و من اجلها... اما بعد ان استقرت هذه الفكرة في نفوسهم فلم تعد موضع صراع و لا موطن مناقشة، فرجع الناس الى حياهم العاطفية يصغون الى انينها

او مرحها... و مثل هذا الذي نتحدث عنه في حياة الجماعة يقع كذلك في حياة الفرد و نستطيع ان نتمثله في حياتنا و ذواتنا... إننا نلاحظ ان موجة فكرية تطغى علينا بعض الاحيان عند قراءة كتاب او الوقوف عند مذهب او مواجهة حادث من الحوادث الاجتماعية التي تمر بنا - فلا تترك هذه الموجة الفكرية مجالاً للنبضة العاطفية وربما تغييها... إننا نحس آنذاك و كأننا محض عقل، و كأن عقلنا اسير لهذه الفكرة حتى يقف منها بعد ذلك موقفاً لا يخضع للرفض او التشكيك فيها.

ماهية الغزل العذري

إننا نستطيع أن نقول إن الحب العذري انما نشأ عن التقاء عنصرين اثنين: اولهما العاطفة الدينية و الثاني الميول الجنسية في نفس المؤمن الذي حسن إيمانه و قوى يقينه. اما الغزل العذري فهوالتعبير الفني الشعري عن هذا الحب، انه هذه الثروة الشعرية التي خلقتها لنا النفوس المحبة التي تذرعت بالايمان و احتمت بالعفة. و تفصيل ذلك يكمن فيها تحدثنا به من قبل فالاسلام لم ينفخ في نار الحب ليطفئها، و لم ينفخ فيها كذلك ليوقدها فتلك من شؤون النفس و الحياة التي لم يواجهها منفصلة عما حولها و لم يعالجها منقطعة عما وراءها و أمامها. و إنما نظر اليها هذه النظرة الجامعة فشقق لها الطريق، و صعّد فيها الميول، و أضاف اليها هذا الحاجز الذي يحول بين طغيانها و المجتمع... و أخيراً زرع في نفس المؤمن نزعة اخرى في عاطفة الحب، و هي نزعة العفة. فظهر من هاتين النزعتين، حب العذري و اراد المؤمن الذي يجب ان يتحدث عن حبه فعليه ان يعبر عن مشاعره و احساسه بحياء و عفة. فلنا ان نقول ان الغزل العذري هو المظهر الفني للعواطف المتعفة و الملتهبة في آن واحد و التي وجدت في هذا التعويض الفني خير ما تطفئ به لهبها و تتسامى به في غرائزها.

صفات الحب العذري

و الاسلام زواج بين مفهومين: مفهوم الحب و مفهوم العفة... فحصّن عاطفة الحب في هذه العفة و اعترف بها في هذا النطاق اطاراً اجتماعياً لا بد منه. و من هنا نستطيع ان نقول ان العفة هي اول صفات الحب العذري و أبرز علاماته و ان النفوس البشرية سواء في تعرضها

للحب... و لكن بعض الحب عاطفة موقته لا تلبث ان تحمد و تبرد وهو كلهب القش لا يلبث ان يزول بعد اتقاد و ضياء و سطوع... وبعض الحب عاطفة خالدة لا ينال منها إعراض او ملل او قسوة، و إنما تظل دائماً متوهجة لها في كل حيز من عالم الحب الداخلي جري لا ينقطع و حين لا يهدأ. و الحب العذري من هذا النوع فلذلك يتصف - الى جانب العفة - بالتداوم والديمومة.

و لا يتخذ الحب مظهراً واحداً عند المحبين جميعاً... انه هادئ عند بعضهم نائر عند بعض آخر. بعض النفوس تشهد هذه المعركة الانسانية في رقابة العقل فتمضي دائماً تتردد في ظلاله و تستعين بإيحائه و تخضع له فيما تأخذ و تدع. و نفوس اخرى تشهد هذه المعركة لا في مجرد رقابة العقل بل في اجتماع العقل و القلب معاً في تغذية الاهواء و إضرار المشاعر. و الحب العذري يعد من النوع الذي يعيش فيه العقل في إسار القلب، إنه حب لا يخالطه برد التعقل و لا تظلمة سحب الفكر... و إنما يمضي بصاحبه في كل حيز خشن صعب، و يقذف به فوق الرمال المشبوبة ليحترق بها... انه حب يمتاز بالحرارة الملتهبة.

و بعد، فستطيع ان نحمل القول اذن بأن الحب العذري هو هذا الحب الذي يتصف بالحرارة الملتهبة و الديمومة الدائمة و العفة المحضة و من هذه الأقاليم الثلاثة يتألف جوهره و تقوم ذاته. انه يجمع هذه الصفات جميعاً في نفس واحدة، ثم يدعها تن و تشكو، و تتضرع و تتلوى... و ليس الغزل العذري الا اعتصاراً لهذه الضراعة و هذا الأين. لقد انطلق الحب العذري من إسار الغريزة ليعيش في آفاق العفة. و أفلت من تقلب الأهواء و توقيتها ليتقلب في خلود العواطف و ديمومتها... و العذريون هم اولئك الذين دعاهم الجمال، و أغرهم اللذائذ، و ثارت في نفوسهم الشهوات... و لكنهم انعتقوا من كل ذلك و انصرفوا عنها، و تحصنوا بالعفة ولذلك لم يخشوا ان يعبروا عن عواطفهم هذه ما دامت السراة تكسوها و العفة تملؤها... فانطلقوا يغنون عواطفهم و ينشدون آلامهم و آمالهم. (فيصل، شكري، ١٩٨٦، ص ٢٨٤ -

شعراء الغزل العذري

الغزل العذري غزل نقي طاهر معن في النقاء و الطهارة، و قد نُسب إلى بني عُذرة لأن

شعرائهم أكثرها من التّعني به و نظمه. ولم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عذرة وحدها فقد شاع في بوادي نجد و الحجاز، و خاصة بين بني عامر، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير، و لا شك في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس، و برأها من كل إثم. و كانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة و المدينة و لا ما ينطوي فيها من لهو و عبث و من تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مر بنا عند الأحوص و العرجي، و هي من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضري المترف و لا الحب الذي تدفع إليه الغرائز، فقد كانت تعصمها بداوتها و تدبئها بالإسلام الخفيف و مثاليته السامية عن مثل هذين اللوين من الحب، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذي يصلّي الحب بناره و يستقر بين أحشائه، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه و لا الإنصراف عنه.

و تقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة، كما يقترن به قصص غزير، و هو قصص فيه بساطة و سذاجة حلوة، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين، و قد أحكم الرواة نسجه، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية، خيلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية، و ذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب. و هو تقليد لم يُعرف في الجاهلية و لا في الإسلام. و قد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين، كأنهم أتوا جناية عظيمة، و لو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص لا هؤلاء المتعفين أصحاب الحب الطاهر الشريف، و قد جرّم القرآن الكريم و الحديث النبوي قتل النفس بغير حق. و لا شك في أن هذا كله قصص لفق السرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد. و إذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم، إذا اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار و ما طُويَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً. (ضيف، شوقي، ١١١٩، ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

وهذا الشعر وبصورة عامة التغزل قد خضع خضوعاً تاماً لتأثير الغناء ولهذا أصبحت موسيقى الشعر الجديد في التغزل أكثر لطفاً من موسيقى الشعر القديم. وعادة الوزن القديمة المطولة تختفي من شعر التغزل ويقبل الشعر والشعراء إلى الأوزان القصيرة الرشيقة.

مقارنة الغزل الإسلامي و الجاهلي

بعد أن استقر الأمر للمسلمين كان هؤلاء الأعراب في حالة غير قليلة من اليأس و الفقر، وهذا اليأس و الفقر أحدثا في البادية مثل ما أحدث اليأس و الغنى في الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعري. و لكن يأس البادية و فقرها أحدثا هذا الغزل العفيف على حين أحدث يأس الحاضرة و غناها ذلك الغزل العابت الماجن. يكفي أن توازن بين حياة البدو بعد الإسلام و قبله لترى أن هناك فروقا عظيمة بين هذين النوعين من الحياة. و لكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها. فلم تكد الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام بل ظلوا يلقون من الضيق و يقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون و يقاسون في العصر الجاهلي الا ان حياتهم العقلية و المعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيراً شديداً و حسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بتلك الطائفة من الآراء التي كان يتأثر بها الجاهليون، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم و ما فيه من دين و خلق و أدب و حكمه و نظام، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوي المسلم في أول عهد الناس بالإسلام و نفسية البدوي الجاهلي.

كان هذا الفرق عظيماً و كان التوازن مختلفاً بين الحياة العقلية و الحياة المادية ؛ تغيرت الاولى تغيراً تاماً، و لم تتغير الأخرى أو لم ينلها من التغير إلا شيء قليل. (حسين، طه، ١١١٩، ٢٢٠-٢٢١)

و امتاز الشعراء الاسلاميون على شعراء الجاهليين بشيئين اثنين: أحدهما أنهم قصبوا اكثر حياتهم الفنية على الغزل. و كان الشعراء في العصر الجاهلي يعنون بالغزل كما يعنون بغيره من الفنون، و ربما اتخذوه في أكثر الأحيان وسيلة لاغاية. أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة. و لم يعرف أنهم مدحوا أو عُنوا بفن آخر من فنون الشعر إلا ما كان يضطرهم إليه الغزل. فنحن نعلم مثلاً أن جميلاً هجاً و فاحراً و لكننا نعلم أنه لم يهيج رغبة في الهجاء، و لم يفاخر رغبة في الفخر، كما كان يفعل الأخطل و الفرزدق و جرير ؛ و إنما هجاً لإن غزله اضطره إلى الهجاء، و فاحراً لأن غزله اضطره إلى الفخر. هجاً قوماً كانوا يعيبونه و يهجونه لغزله و نسيبه، و فاحراً هؤلاء القوم أنفسهم، و لو لم يعرضوا له لما فاحر و لا هجاً، و نحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر، و قد أضيف إليه أبيات مدح بها ابن ابي عتيق و لم يقلها قيس إلا لأن ابن ابي عتيق جدّ في وصل الحبل بينه و بين لبني.

و الآخر أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن

غزل الجاهليين كان مادياً خالصاً حين كان في غزل الإسلاميين شيء غير المادة. و أظن أن هذا يحتاج إلى شيء من الإيضاح. ما الذي كان يعني به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزلوا و ذكروا النساء؟ لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم، و إنما كان الغزل عندهم ضرباً من الوصف، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل. و قلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصاً على تمثيلها، فإن وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراء؛ لأنها كانت عاطفة مادية غليظة إن صح هذا التعبير كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات و يثار اللذة قبل كل شيء. و من هنا تجد عند امرئ القيس و النابغة مثلاً هذا الوصف المادي الذي يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفاً تفصيلياً يختلف حظه من العفة قوة و ضعفاً؛ و لكنه مادي قبل كل شيء. و انهم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل كذلك كان الغزل في الجاهلية، كان وسيلة و كان مادياً.

أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة و إنما كان غاية، و لسنا نستطيع أن نقول إنه بريء من المادة و خلا منها خلواً تاماً، فذلك غير صحيح، و لم يستطع الأدب العربي في وقت من الأوقات أن يبرأ من المادة، و إنا نستطيع أن نقول: إن الغزل الإسلامي العذري أضاف إلى المادة شيئاً آخر جعله قوام الشعر، نريد به حب نفسه و ما يترك في القلب من أثر و ما يبعث في النفس من عاطفة، و ما يسبغ على الحب من كآبة و حزن، و ما يحيي فيه من أمل و رجاء، لسنا نشك في أن جميلاً و قيس بن ذريح و الجنون قد وصفوا أجسام بثينة و لبنى و ليلى، بل وصفوا هذه الأجسام وصفاً مفصلاً لا يخلو من دقة و تحقيق، و لكننا لا نستطيع أن نشك في أن هذا الوصف المادي لم يكن الغرض الذي كان يرمي إليه هؤلاء الشعراء، إنما كان وسيلة إلى الغرض الذي كانوا يرمون إليه، و هو وصف النفس و ما تلتقي بالحب من شقاء أو سعادة و من بؤس أو نعيم. انتقل إذن موضوع الغزل في الإسلام، كان في الجاهلية جسم المرأة فأصبح في الإسلام نفس العاشق، و من هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل و لم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد، و إنما كانوا يصفون المرأة كما ينبغي أن يصفها إنسان يشعر و يحس و يمتاز بشيء من الشعور و الحس لا يخلو من رقة و رقي معاً لم تكن المرأة عند هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيئاً يطمع فيه، و إنما كانت شطراً من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا بها. و لعلك تفرنا على أن هذا رقي عظيم، و على أن العقل العربي و الشعور العربي عند ما بلغا هذا الطور من تصور المرأة و الحكم عليها و الميل إليها؛ كانا قد جاوزا كل المحارزة طور الوحشية التي كان يعيش فيها

الجاهليون. و ليس غريباً أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن؛ و أُنسر القرآن في نفوس المسلمين عظيم. (نفسه، ص: ٢٢٤ - ٢٢٦)

مقارنة غزل الجاهلي و الأموي

وجد الغزل العفيف في الجاهلية، و إن كان أقل بكثير مما كان عليه العذريون الأمويون، فليس هو وليد العصر الأموي كما يذهب اليه عدد من الدارسين المعاصرين مثل: موسى سليمان و أحمد عبدالستار الجوارى و شكري فيصل، فيمكن عدّه نواة و أصلاً للاتجاهين العفيفين في العصرين الأموي و العباسي. و ليس ينكر أنه ازدهر و استوى على سوقه في العصر الأموي؛ ثم « اكتملت له سماته المميزة و استقرت تقاليده و مقوماته التي اكتسب معها صورته الأخيرة و شكله النهائي الثابت » فعرف العصر الجاهلي جماعة من المتيّمين الذين اقترنت أسماءهم المرقش الأصغر و فاطمة و مالك بن الصمصامة و جنوب، و عبدالله بن العجلان و هند، و عمرو بن كعب و عقيلة، و عبدالله بن علقمة و حُبَيْشَة و عروة بن حزام و عفراء، و كان عنتره و عبلة اكثرهم شهرةً. كان لأولئك العشاق قصص لا تقل عن قصص العذريين الأمويين، ليس ينكر أن الرواة بالغوا في نسج كثير منها و تزايدوا فيه، و ليس بغريب أن يقع الدارس على تشابه كبير في بعضها. أمّا شعرهم فبالرغم من قلّته بالنسبة لنظرائهم الأمويين فيدل على حب مخلص و عواطف صادقة و مشاعر ملتتهبه. و تظهر في غزلهم مرارة الحرمان و الألم و الشكوى، فمالك بن الصمصامة كان يشكو كثرة الرقباء و العذال. و عروة كان يدعي نحول الجسم و ديمومة خفقان القلب. و لكن شعرهم لم يخل من بداوة حسية لا تتخطى اللبس و التقبيل أو تمنّيها. (حسين بكار، يوسف، ص: ٥٦)

اهم النتائج التي تمّ التوصل اليها هي:

- ١- إن ظاهرة الحب العذري كانت في العصر الجاهلي و في الحقيقة في هذا العصر كانت بدايته.
- ٢- في العصر الاسلامي استقلّ الغزل و اصبح غاية بعد ما كان وسيلة.
- ٣- في العهد الاموي كثر الغزل لوفرة عوامله و ظهر شعراء كثيرون في هذا المجال.
- ٤- من صفات العذريين صدق العاطفة و اليأس و الحرمان.
- ٥- الاوزان التي يتطلبها الشعر الغزلي ما هي الا اوزان قصيرة.

المصادر و المراجع:

١. الاصفهاني، ابوالفرج: (١٩٨٦م) الاغاني، المجلد السادس، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢. بكار، حسين يوسف: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، بيروت، لبنان، الطبع و النشر و التوزيع (دارالاندلس)
٣. حسين، طه: (١١١٩) حديث الاربعاء، المجلد الاول، مصر، دار المعارف، بمصر القاهرة - الطبعة الثانية عشرة.
٤. خليف، يوسف: (١١١٩) ذو الرمة شاعر الحب و الصحراء، دارالمعارف بمصر.
٥. زراقت، عبدالمجيد: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٩م) ديوان جميل بثينة، دار و مكتبة الهلال بيروت.
٦. ضيف، شوقي: (١٩٦٧) الشعر و الغناء في المدينة و مكة لعصر بني امية بيروت، لبنان، دار الثقافة، الطبعة الثانية.
٧. _____: تاريخ الادب العربي (٢) العصر الاسلامي، القاهرة، دار المعارف، مصر ١١١٩ - الطبعة السابعة.
٨. عابدين، نزار: (١٩٩٩)، الغزل في الشعر العربي، سورية، دمشق.
٩. عفيفي، صادق: (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) الحب و مذاهبه النفسية و الجمالية، دار البيضاء.
١٠. عيد، يوسف: (٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) ديوان العذريين، بيروت، دار الجيل، الطبعة الاولى.
١١. الفاحوري، حنا: (١٩٩٥)، الجامع في تاريخ الادب العربي (الادب القديم)، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
١٢. فرحات، يوسف: (١٩٩٤) ديوان مجنون ليلي، دارالكتاب العربي، الطبعة الثانية.
١٣. فروخ، عمر: (١٩٩٧)، تاريخ الادب العربي، المجلد الاول، دارالعلم للملايين (مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر) الطبعة السابعة (حزيران / يونيو).
١٤. فيصل، شكري: (١٩٨٦)، تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة.
١٥. محمد عليان، احمد: (١٩٩٢)، كتير عزة، عصره، حياته وشعره، دارالكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٦. نورالدين، حسن: (٢٠٠٠ م)، امراء الشعر العربي (من العصر الجاهلي الى العصر العباسي) بيروت، لبنان.
١٧. نعماني، عبدالعزيز: (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، فن الشعر بين التراث و الحداثة، دارالمصرية اللبنانية.

Pure Sonnets from Ignorance Age to the Umayyids

Qhadimeh Ahmadian
MA student of Theology
Khairieh Echresh, ph.D
Ahwaz University

Abstract:

People have been familiar with sonnets since Ignorance Age and they have left behind a number of good poems. Sonnet age was a means in ignorance not an end and had corporeal aspects but sonnets attained independence in the Islamic period. They were not a means as before but were an end with a specific purpose. The new religion and the Quran affected the development of sonnets. Poems in this period were pure and appeared to be common between the nomads who lived in slums. Poverty and destitution purified the spirits and language of people. But civil sonnets were to the cities where civilized people were living in ease and comfort. The most famous sonneteers were Gheys ben Almeloh (Majnoon), Jamil Bothneya, Kaseer Azeh, Orvah, and Tobah.

Keywords : *Pure Sonnet, Virtue, Ignorance Age, Jameel Bothneye, Desert*